المحاضرة الرابعة/الثلاثاء/ 24/3/2020

الفلسفة والدين - التأويل

من رسالة الكندي إلى المعتصم بالله

في الفلسفة الأولى

د. رائده الدالي

يمثل الكندي نقطة التحول أو الحد الفاصل بين الفكر الكلامي، والفكر الفلسفي، الذي أسس لفلسفة عقلية بذل من أجلها الكثير، وكان بحق فيلسوف الإسلام الأول الذي تصدى للدفاع عن العقيدة الدينية، موظفاً الفكر اليوناني لصالح الفكر الديني الإسلامي، ولأجل إعلاء شأن العقل.

تكشف رسائل الكندي بشكل عام على تمسكه بعقيدته الدينية من جهة، وعلى تمسكه بالفلسفة والمنهج العقلي من جهة أخرى.

وخير دليل على ذلك هذه الرسالة التي بدأ فيها الكندي بديباجة تؤكد على موقفه الديني، هذه الديباجة أولها الحمد لله، وسؤال الله التوفيق، ويتخلل الرسائل الدعاء لقاريء الرسائل بأن يرشدهم الله للصواب ونيل المطلوب، بالإضافة إلى توجيهات من الكندي لطالب المعرفة، ويختم الكندي الرسائل بالصلاة على النبي وآله وأصحابه ومن اتبعه.

قد بدأ بالتعريف بالفلسفة "علم الأشياء بحقائقها بقدر الطاقة الإنسانية". وأشار إلى شرف هذا العلم(الفلسفة الأولى) لأنه يبحث في العلة الأولى التي هي علة كل حق، ومن ثم يحدد الغاية التي ينتهي إليها الفيلسوف وهي إصابة الحق والعمل به.

رفض الكندي التعصب بكل أشكاله الفكرية، أو الدينية، أو العرقية، وامتدح المشتغليين في الفلسفة من القدماء، على أي ملة كانوا، أو أي جنس، أو عرق، لأن الغاية هي الحق، نأخذ بالحق أياً كان مصدره فيقول**"ينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى عن الأجناس القاصية عنا..فلا شيء إولى بطالب الحق من الحق".** إلا أن فيلسوف العرب وإن كان قد أقر بفضل السابقين على ما قدموه من معارف ويوجه لهم الشكر، وخاصة أرسطو طاليس، إلا أنه يشير إلى أنه لم يأخذ عنهم تقليداً فيقول:" نلزم في كتابنا هذا عاداتنا في جميع موضوعاتنا من إحضار ما قاله القدماء في ذلك قولاً تاماً، على أقصد سبله وأسهلها سلوكاً على أبناء هذا السبيل، وتتميم ما لم يقولوا فيه قولاً تاماً..بقدر طاقتنا".

- رفع الكندي راية الدفاع عن الفلسفة أمام العقول الجامدة التي ترفض العلوم العقلية، والتفكر، والنظر في العقيدة، وتتبع التقليد، مع أن اتباع التقليد أمر ترفضه الشريعة بذاتها، ومع ذلك يزعم منكري الفلسفة والعقل أنهم يدافعون الدين.

ويتجلى دفاع الكندي عن الفلسفة ضد رجال الدين الذين يدّعون أنهم علماء الدين، ويعتبرون أنفسهم أهل الحق، وهم في الحقيقة لا يريدون إلا تحقيق مصالحهم وأهدافهم الدنيوية، ومحاربة أهل العلم والعلماء الحقيقيون الذين يريدون نصرة الدين فيقول:

"فلا يتنكر للفلسفة-علم الحق-إلا أهل الغربة عن الحق، وإن توجوا بتيجان الحق من غير استحقاق، لضيق فطنهم عن أساليب الحق، ولدرانة الحسد المتمكن من أنفسهم البهيمية....والحاجب أبصار فكرهم عن نور الحق، ووضعهم ذوو الفضائل الإنسانية بموضع الأعداء ذباً عن كراسيهم المزورة التي نصبوها من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين، وهم علماء الدين، لأن من تاجر بشيء باعه...ومن باع شيء لم يكن له، **فمن تاجر بالدين لم يكن له دين، ويحق أن يتبرى منه الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها(الفلسفة) وسماها كفراً".**

فبحكم الشرع يجب تعلم الفلسفة لمصلحة الدين والدنيا، **ولا ينكر الفلسفة إلا جاهل، أو حاسد لأهل العلم، أو منتفع بتجارة الدين.**

دليل الكندي لخصوم الفلسفة على وجوب تعلمها:

حثّ الكندي على التمسك بالفلسفة، وعلى السعى في طلبها بغاية جهدنا، لأنها قنيّة نفيسة

ثم قدم دليلاً عقلياً يلزم خصوم الفلسفة بضرورة تعلمها والتمسك بها، وأن تعلمها واجب فيقول:

لا يخلو (أي منكري الفلسفة)من أن يقولوا: إن اقتناء الفلسفة يجب أو لا يجب.

فإن قالوا يجب، وجب عليهم طلب الفلسفة.

وإن قالوا إنها لا تجب. وجب عليهم أن يحضروا لها علّة ذلك(أي أن يوضحوا ما السبب في رفض الفلسفة) وأن يقدموا الحجة و البرهان على صحة رأيهم.(أي دليل).

ويخلص الكندي إلى النتيجة: أنهم إذا قدموا لنا العلة والبرهان على سبب رفضهم للفلسفة وإنكارها، فإن إعطاء العلة والبرهان من قنية علم الأشياء بحقائقها(أي علم الفلسفة). إذاً فواجب عليهم طلب هذه القنية بألسنتهم.

- رفع الكندي راية الدفاع عن العقيدة الإسلامية في مواجهة منكري الألوهية، وأعداء الدين، فوظف الفلسفة من أجل الوصول إلى هذه الغاية.وقد يصرح في خاتمة الرسالة بأنّ الغاية القصوى من هذه الرسائل وهي:

تثبيت الحجة على الربوبية و ايضاح الوحدانية لله أمام المعاندين بالحجج القامعة، ويقول: "إن نيتنا نصرة الحق، وتأييد الصدق".

"لأن علم في الأشياء بحقائقها علم الربوبية، وعلم الوحدانية، وعلم الفضيلة، وجملة علم كل نافع والسبيل إليه، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه، واقتناء هذه جميعاً هو الذي أتت به الرسل الصادقة عن الله جلّ ثناؤه".

العلاقة بين الفلسفة والدين:

الحقيقة الدينية، والحقيقة الفلسفية عند الكندي حقيقة واحدة، فالحقائق التي تأتي بها الفلسفة تتفق مع حقائق الدين، فالهدف واحد، وإنما تختلف الطريقة، فالفلسفة هي علم الحق، **وطريقها العقل**، والدين علم الحق، **وطريقه الوحي**، والعلاقة بينهما علاقة تكاملية.(لاحقا سيقول ابن رشد الحق لا يضاد الحق).

اعتقد الكندي أن الواحد المطلق هو الله، وأن الوحي والعقل كلاهما مصدران للمعرفة، لكن النبوة ولأنها عطاء من الله تعالى لذلك فهي أدق من الفلسفة.

فالفلسفة والنبوة طريقتان مختلفتان للوصول إلى الحقيقة، مع أن الحقيقة واحدة، وقد فرق الكندي بينهما في أربعة أوجه:

أولاً: إن طالب الفلسفة يتوجب عليه أن يخضع لفترة طويلة من التدريب والدراسة ليصبح فيلسوفاً. أما النبوة فإن الله يسبغها على أحد البشر.(عطاء)

ثانياً: الفيلسوف يصل إلى الحقيقة بتفكيره وبصعوبة بالغة، بينما النبي يهديه الله إليها.

ثالثاً:فهم النبي للحقيقة أوضح وأشمل من فهم الفيلسوف.

رابعاً: قدرة النبي على شرح الحقيقة للناس العاديين أفضل من قدرة الفيلسوف.

هذه الاختلافات الأربعة جعلت الكندي ينتهي إلى نتيجة مفادها: **أن النبي يتفوق على الفيلسوف في أمرين:**

1- السهولة والدقة.
2- الطريقة التي يقدم بها الحقيقة للعوام.

فالنبيّ أعلى رتبة من الفيلسوف. والفلسفة عند الكندي وإن كانت أشرف الصناعات التي يمكن للبشر أن ينالوها، ولكن بعد علم النبوة.

استدل الكندي بأواخر سورة "يس" على أن الأنبياء قد خصهم الله بعلم يعجز عنه البشر العاديون فقال في رسالته (كمية كتب أرسطو طاليس): "إن تدبر متدبر جوابات الرسل فيما سئلوا عنه من الأمور الخفية الحقية التي إذا قصد الفيلسوف الجواب فيها بجهد حيلته التي أكسبته علمها لطول الدؤوب في البحث والتروض ما نجده أتى في الوجازة والبيان وقرب السبيل والإحاطة بالمطلوب كجواب النبي". واستدل بقول الله عز وجل:" "قال من يحي العظام وهي رميم قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم".

فيقول وأي دليل في العقول النيرة الصافية أبين وأوجز من أنه إذا كانت العظام، فممكن إذا بطلت بعد أن كانت وصارت رميما أن تكون أيضا، فإن جمع المتفرق أسهل من صنعه أيس ومن إبداعه.

أما عند باريهم فإن القوة التي أبدعت، ممكن أن تنشيء ما أدثرت، وكونها بعد أن لم تكن موجودة للحس فضلا عن العقل".

التأويل عند الكندي

التأويل هو المنهج الذي اتبعه الكندي للبرهنة على أن الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية هما حقيقة واحدة، وأن الاختلاف بينهما في الطريقة فحسب**، محاولة منه في تقريب الفلسفة من الشريعة**

فجعل من الفلسفة(العقل) الأصل والميزان، ثم نظر في الشرع، فما وافق ظاهر الشرع من الفلسفه فهو مقبول، وما خالفها يعتمد فيه **التأويل** ليكون متفقا معها.

وعلوم الأنبياء وإن كانت أرقى وأرفع وأدق. إلا أن العقل يستطيع أن يستدل على ما جاء به النبي.

" إن كل ما جاء به الرسول الصادق صلى الله عليه وسلم، وما ادعاه عن الله، يمكن فهمه بالمقاييس العقلية، التي لا يدفعها إلا من حرم صورة العقل، واتحد بصورة الجهل من الناس".

وتجلى المنهج التأويلي عند الكندي في رسالة بناء على طلب الأمير أحمد ابن المعتصم الذي أراد أن يعرف **معنى الآية "والنجم والشجر يسجدان" بمقاييس عقلية،** فاستجاب له الكندي بهذه الرسالة التي تحمل عنوان:

"في الإبانة عن سجود الجرم الأقصى وطاعته لله عز وجل"

تأويل "والنجم والشجر يسجدان"

وجد الكندي في اللغة العربية وما فيها من اشتقاقات وتصريف أسماء طريقا لتأويل السجود بالمعنى الفلسفي أو (المقاييس العقلية).

فقال:

السجود يقال على وضع الجبهة في الصلاة وإلزام باطن الكفين والركبتين على الأرض. ويقال أيضا على الطاعة فيما ليست له جبهة ولا كفان ولا ركبتان وجملة ما لا يكون فيه السجود الذي في الصلاة. **فمعنى سجوده الطاعة.**

ثم قال:

الطاعة تقال على التغير من **النقص إلى التمام،** وعلى **الانتهاء إلى أمر الآمر،** والانتهاء إلى أمر الآمر إنما يكون **بالاختيار،** والاختيار يكون لذوي **الأنفس النطقية،** ثم ينتهي إلى القول بأن **سجود الأجرام يعني الانتهاء إلى أمر الآمر،**(الطاعة) إذ ليس لها **الآلة** التي يكون بها السجود للصلاة، ولا هي منتقلة من نقص إلى تمام لأنه لا يعرض لها الكون والفساد" .

ثم أكد الكندي هذا التأويل لمعنى السجود بأقاويل منطقية فقال:

إذا تقدم ما أردنا تقديمه من هذا القول فلنقل الآن في الإبانة عن الجرم الأعلى بجميع أشخاصه أنه **حيّ مميِّز** ليتضح أنه مطيع طاعة اختيارية بأقويل منطقية ظاهرة الإيضاح.

الدليل: أن الجرم الأقصى حيّ:

الفلك جرم وكل جرم لا يخلو من أن يكون حياً أو لا حياً. إذا الفلك إما حي وإما لا حي.

وكل علة إما أن تكون عنصر، أو صورة، أو فاعلا، أو غاية. والفلك ليس بعنصر للمكونات لأن العنصر المكون يستحيل من صورة إلى صورة والفلك غير مستحيل، ولا هو صورة لأن

الصورة غير مفارقة عنصرها، والفلك مفارق للمكونات. ولا هو غاية لأن الغاية شيء يلحق بالجسم، فلم يبقى إلا أن يكون الفلك **علة فاعلة قريبة لكل مكوّن،** وفعله بالحركة الذاتية الدائمة.

إذن: الجرم الأقصى حيّ بالفعل، ومفيد الجرم الأدنى الواقع تحته الحياة اضطراراً".

وإذا ثبت أن الأجرام الفلكية حيّة، فإن الخاصة اللازمة للحي هي الحس وقوة التمييز، فهي إذا ناطقة.

الدليل أن الجرم الأقصى ناطق:

لا يخلو أن تكون ناطقة أو لا ناطقة

والجرم الناطق أشرف من الذي هو لا ناطق

وإن لم تكن ناطقة وهي علة كوننا ووجودنا فنكون أشرف منها، وقبيح أن يكون **المعلول أشرف من العلة".**

النتيجة: استطاع الكندي أن يصل من خلال اللغة على **المعنى الفلسفي للسجود وهو الطاعة،** والطاعة تعني الانتهاء إلى آمر الآمر، والانتهاء إلى أمر الآمر لا يكون إلا بالاختيار، ثم استدل منطقياً على أنها ناطقة بأنه إذا ثبت أن للجرم العلوي طاعة اختيارية ثبت أنه حي مميز (ناطق).

ثمّ يفسر الكندي أيضاً الآية:"الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون" أن الله يرشدنا إلى أن كون الشيء من نقيضه موجود، فجعل من لا نار نار، لأن الشيء إذا لم يحدث من غير نقيضه فالشيء إذن يحدث من ذاته، فذاته ثابتة أبدا. فإذا كانت النار من نار والنار من نار....لزم التسلسل والتسلسل باطل. فالنار أبدا موجودة إلى لانهاية، ولا يمكن وجود اللامتناهي بالفعل. لكن النيران موجودة بعد أن لم تكن، والنار داثرة بعد أن كانت. **إذا النار من لانار، وكل كائن من غير ذاته كان".**

فالخلق والإبداع لا يكون إلا من العدم، لأن العدم نقيض الوجود، فوجود الشيء يكون من لاشيء.

والله هو الفاعل الحق أخرج أيس من لا أيس، فليس يحتاج إلى زمان ومدة " إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون".

وبهذا المنهج التأويلي كان استدلال الكندي يهدف إلى إثبات ما جاء به النبي بالمقاييس العقلية ، فأثبت أن الأفلاك تسجد لخالقها، وأثبت أنها مخلوقة من العدم (إبداع). ونفى التعارض بين العقل والشرع، بين الفلسفة والدين، إلا أنه أعلى من شأن النبي على الفيلسوف وأكد أن (القرآن) ليس بكلام بشر، ولا يمكن لهم أن يأتوا بمثله فقال:

" فأي بشر يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقدر حروف هذه الآيات ما جمع الله جل وتعالى إلى رسوله(ص) فيها من إيضاح أن العظام تحيى بعد أن تصير رميما، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض، وأن الشيء يكون من نقيضه، كلت عن مثل ذلك الألسن المنطقية، وقصرت عن مثله نهايات البشر، وحجبت عنه العقول الجزئية".